وفاء وإخلاص

لم أتخيل يومًا أن يحدث مثل هذا الموقف أمام عينيَّ ، ولم أرَ حيوانًا قط بهذا الذكاء والإخلاص.

في يوم من الأيام خرجت أنا وعائلتي إلى السوق لشراء بعض الأغراض التي يحتاجها البيت، وبعد أن انتهينا من تسوقنا قررنا أن نسير على أقدامنا إلى البيت ، فالجو كان لطيفًا جدًا، ونسمات الهواء العليل تداعب خصلات شعرنا المنسدل، وهناك الكثير من المناظر الطبيعية الخلابة التي تسر النظر والروح، ورائحة الأزهار تملأ أنوفنا برائحة ذكية، كانت أغصان الشجر تتراقص مع نسمات الهواء والعصافير تغرد بصوت عذب جميل.

سرت أنا وعائلتي في الطريق المؤدي إلى بيتنا نتجاذب أطراف الحديث ونضحك ونمرح معًا، ونستمتع بتلك الطبيعة الصافية، وفجأة قطع صوت ضحكاتنا أنين حزين قادم من جانب الطريق بين الأشجار.

كان هناك رجل يجلس على الأرض ويخفي وجهه بين كفيه، وبجواره كلب باسط ذراعيه على الأرض وكأنه حزين لحزن صاحبه،

ذهبنا إليه وسألناه ما بك يا عمي؟

فرفع وجهه الممتليء بالدموع، وتكلم بصوت خافت كأنه يخرج بصعوبة من حنجرته. لقد فقدت ابنتي الصغيرة منذ بضع ساعات.

كانت تلعب بجانبي واختفت فجأة ولم أعثر عليها في أي مكان رغم محاولاتي اليائسة أن أجدها. قلنا له صف لنا البنت حتى نبحث عنها ونساعدك. أجاب الأب بصوت تخنقه الدموع: ابنتي في الخامسة من عمرها، ترتدي فستانًا أحمر اللون، وحذاءً جلديًا أسود، وشعرها طويل فاحم منسدل على كتفيها. هل رأيتم طفلة بتلك الصفات في طريقكم.

أجبناه: بلا، لم نرَ طفلة في طريقنا من السوق إلى هنا. ولكن دعنا نبحث عنها في مكان.

اقترح أبي أن نقسم أنفسنا إلى مجموعات وتبحث كل مجموعة في مكان حتى لا نضيع الوقت في البحث معًا في مكان واحدٍ.

ذهب أبي وأخي إلى الجهة المقابلة من الطريق، بينما ذهبت أنا والأب والكلب إلى الجهة الأخرى، كان الأبُ المكلوم ينادي على ابنته بصوت عالٍ لعلها تسمعه وتجيبه، ولكن بلا فائدة.

استمر بحثنا قرابة الساعتين حتى غربت الشمس وبدأ يحل الظلام علينا، فازداد قلقنا وتضاعفت حيرتنا، إذ لم نجد البنت في النهار مع ضوء الشمس وكثرة المارة في الشوارع، فكيف نجدها في الظلام؟! بدا الخوف ظاهرًا على وجه الأب بعد محاولاتنا الكثيرة في البحث حتى شعرنا بالتعب، وأوشك اليأس أن يتسلل لقلوبنا.

جلسنا في ظل مصباح من مصابيح الشارع نستريح ونلتقط أنفاسنا ونعيد التفكير في طريقة البحث وتغطية أماكن أكثر وأبعد، وأمي تحاول التخفيف عن الرجل بكلامها الطيب وتطمئنه أننا سنجد البنت في وقت قريب.

فجأة انتبهنا جميًعا لعدم وجود الكلب، فالتفتنا فوجدناه قادمًا من بعيد وهي ينبح بصوت قوي كأنه يريد أن يلفت انتباهنا لشيء مهم.

وصل الكلب وهو يلهث ،

وكاد يقع على الأرض من شد التعب والإعياء.

أمسك الكلب بثياب صاحبه كأنه يقول له اتبعني،

وبالفعل مشى الكلب ومشينا جميعًا وراءه

حتى وصلنا إلى منطقة شبه مهجورة بعيدة

عند الطريق، وكلما اقتربنا أكثر بدا صوت بكاء الطفلة واضحًا أكثر . بدأ الصوت يقترب

أكثر فأكثر حتى وصلنا إلى مبنى قديم متهدم الحوائط، وكانت البنت تجلس في زاوية من زواياه وتبكي من الخوف والوحدة والظلام.

جرى الأب إلى ابنته بلهفة وضمها إلى صدره بقوة وصوته يعلو بكلمات الشكر والفرح، كأنما استعاد روحه المفقودة.

سأل الأب ابنته عن سبب غيابها واختفائها ولماذا أتت إلى هذا المكان؟

قالت البنت: كنت ألعب مع الأطفال ونختبىء

من بعضنا، وجريت أبحث عن أصدقائي

بعدما اختبؤوا مني حتى وصلت إلى هنا

ولم أجدهم ولم أجد أحدًا من الناس يساعدني.

فدخلت في هذا المكان وانتظرتك حتى تأتي وتأخذني،

ولكنك تأخرت يا أبي حتى حلَّ الظلام وبكيت من الخوف.

كانت دموع الأب تنهمر كأنها شلال متدفق، ولا أدري أكانت تلك دموع الفرح بالعثور على ابنته، أم دموع تأنيب الضمير لشعوره بالإهمال عندما غفل عن ابنته حتى ابتعدت عنه كل تلك المسافة.

شكرنا الأب كثيرًا على مساعدتنا له طوال هذا الوقت، لكن الكلب كان هو البطل الحقيقي في رحلة العثور على البنت الصغيرة، يا له من كلب ذكي ومخلص.

مشى الأب وابنته والكلب إلى بيتهم، وأخذنا طريقنا إلى بيتنا وشعرنا جميعًا بالسعادة تغمرنا، وفي رأسي صورة الأب الحنون وهو يحتضن ابنته.

Marlina Malak 7 H